الجنوب منه والبرد في الشمال. ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً فالاقليم الرابع أعدل العمران والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال والذي يليهما الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال والأول والسابع أبعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكوّن في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسط (الثالث والرابع والخامس) مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً – حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها، ولا نقف على خبر بعثة من الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية، وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم... وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد عن الاعتدال في جميع أحوالهم فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود. وأكثرهم عرايا من اللباس... وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى ينقل عن كثير من السودان أهل الاقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً وكذلك الصقالبة"... وكذلك أحوالهم في الديانة أيضاً فلا يعرفون نبوءة ولا يدينون بشريعة"[٧]...

بالاضافة إلى أثر الاقليم، أي موقع الانسان الطبيعي على الأرض، يضيف ابن خلدون أثر المناخ والهواء، على بني البشر. وبناء على استقرائه للواقع الطبيعي واستنتاجه ما يمكن أن يؤثّر على الانسان بالعقل، دحض الآراء الشائعة في زمانه من أن ألوان البشر تعود إلى قسمة قسَّمها الله على أبناء نوح. ويسرد هنا ابن خلدون، بشيء من السخرية، قصة السواد الذي طبع أجسام قسم من البشر، وردَّ

٧- المرجع نفسه، ص: ٩١- ٩٢.

ذلك إلى انتسابهم إلى حام بن نوح لأن أباه نوح دعا عليه فنتج عن هذه الدعوة سواد في اللون وعبودية في علاقاتهم مع غير جنسهم من البشر. ولا يكتفي ابن خلدون بدحض هذه الأفكار؛ بل يقدم البديل المنطقي المبني على العقل وهو تأثير المناخ وقوة أشعة الشمس في مناطق محدّدة من العالم وهما اللذان يطبعانْ جسم الإنسان بهذا اللون الذي يقترب من السواد كلما "اقترب" من الشمس. ويخفّ السواد كلما "ابتعد" وهكذا حتى يبتعد الانسان بجسمه من السواد إلى البياض، وحتى إلى اللون المفرط في البياض أي اللون الأصهب المائل إلى الاحمرار مع الشعر الأشقر المائل إلى البياض. يقول ابن خلدون أن ردّ السواد إلى أبناء حام هو "غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء... هذا اللون شمل أهل الاقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب. فإن الشمس تسامتُ رؤوسهم مرتين في كل سنة - قريبة احدهما من الأخرى - فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ويلج القيظ الشديد عليهم وتسودّ جلودهم لإفراط الحر"... يقابلهما من الشمال الاقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضاً البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيّض ألوان أهلها وتنتهي إلى... زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور"[٨]...

ويرى ابن خلدون أن الهواء (المناخ) لا يؤثّر فقط على الشكل الفيزيولوجي للانسان، بل يتجاوز ذلك إلى التأثير في أحوالهم النفسية والأخلاقية. فالزنوج نتيجة لهذا التأثير يتميّزون بالخفة والطيش والمجون ومحبة اللهو والرقص وعدم التفكير بعواقب الأمور. ويقدم لذلك تفسيراً يعتمد على أثر المناخ الحار على أمزجتهم وأرواحهم فتكون أكثر تقبلاً للمرح والسرور اللذين يؤديان إلى الطيش

٨- المرجع نفسه، ص: ٩٣.

والمجون. وهذا على عكس أهالي الأقاليم الباردة (المناخ البارد) الذين يتميزون بالافراط في الحزن والمبالغة في تقدير العواقب، وبرودة الأعصاب، والخوف من المستقبل حتى أن الواحد منهم يدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوت يومه. وينكر ابن خلدون كافة الآراء التي ترجع هذا الاختلاف إلى اختلاف في طبائع الأجناس البشرية[٩].

وينتقل ابن خلدون من تأثير الاقليم والمناخ إلى تأثير التربة. فهو يرى أن أبناء المناطق المعروفة بجدبها وقلة خصوبتها أحسن حالاً في أجسامهم وأخلاقهم من أهل المناطق المتميّزة بخصوبتها وكثرة مواردها. هؤلاء ينغمسون في الملذات ويعيشون في ترف ورفاهية كنتيجة طبيعية لما تقدّمه لهم الأرض (التربة) من خيرات. فينعكس ذلك في شكل الأجسام فتصبح أكثر بدانة وترهلاً، وأقل مقاومة للأمراض. ويؤثر ذلك أيضاً على أذهانهم فتصبح أكثر بلادة. وعلى العكس من ذلك في تأثير المناطق المجدبة على سكانها. فهم أصفى ألواناً، وأنقى أبداناً وأكمل شكلاً، وأبعد عن الانحراف أخلاقاً، وأثقب في المعارف، ذكاء وإدراكاً[١٠].

وإذا كانت أفكار ابن خلدون، اليوم تظهر أكثر ميلاً إلى الحتمية في إظهار العلاقة بين الانسان والبيئة من الأفكار الحديثة، فإن ذلك لا يعني أن هذه الأفكار فقدت قيمتها، بقدر ما تعني أهميتها في العصر الذي ظهرت فيه. فظهرت الاختلافات بين بني البشر، لا للطبيعة الموجودة لدى كل عنصر منهم، بل للاختلافات في البيئة الطبيعية. وتكمن أهمية ابن خلدون في أنه لم يكتف بربط أحوال البشر بأحوال بيئتهم، بل تجاوز ذلك إلى ربط أحوالهم الاجتماعية بأحوال بيئتهم الطبيعية ومن ثم بدرجة معارفهم، والانتقال من طور إلى طور من خلال

٩- المرجع نفسه، ص: ٩٥- ٩٦.
١٠- المرجع نفسه، ص: ٩٧- ٩٨.

التفاعل الدائم والمستمر بين حياتهم الاجتماعية وبنيتهم الذهنية[١١]. وهذا ما يرفع ابن خلدون من خانة الذين يقولون بالحتمية إلى خانة الرواد الذين يقولون بالامكانية وذلك من خلال تأثير الانسان في الطبيعة المتأتي من تقدم معارفه في الصنائع والعلوم.

هذه الأفكار كانت رائدة في زمانها. ويعتبر ابن خلدون من الأوائل الذين ربطوا بين الحياة الاجتماعية والبيئة الطبيعية. إلاّ أنه لم يحصر اهتمامه بهذا الموضوع، ولم يطرح نفسه كعالم في الجغرافيا البشرية، أو واضع نظرية في حتمية تأثير البيئة الطبيعية على الانسان، بل توسّل ذلك كله من أجل توضيح نظريته في علم العمران وفي كيفية تقدم المجتمع الانساني من طور إلى طور أرقى. وقد كان في فلسفته التاريخية وفي مقارنته لحياة البدو والحضر، وفي إظهار الاختلافات بين بني البشر عالم اجتماع (عمران) قبل أي شيء آخر.

عندما ظهرت الافكار المتنوّرة لإبن خلدون كانت أوروبا لا تزال ترزح تحت ثقافة القرون الوسطى. ولم تبدأ بالخروج إلاّ مع عصر الاكتشافات الجغرافيّة التي فرضتها ظروف العلاقة بين بلدان أوروبا ابتداء من منتصف القرن الخامس عشر. هذه الاكتشافات والرحلات وضعت أوروبا على أبواب معارف جديدة لم تكن مطروحة من قبل. كان ذلك نتيجة ما قام به الرحالة والمكتشفون من أعمال كان أهمها التقارير التي تتضمن وصفاً للمناطق التي وصلوا إليها، وشرحاً وافياً للشعوب الذين تعرفوا إليهم بعاداتهم وتقاليدهم وأنماط حياتهم مع ما يشتهرون به من أعمال وما تزخر به بلادهم من مواد أولية، وعلاقة كل ذلك بالبيئات التي يعيشون فيها وتأثيرها عليهم.

١١- فردريك معتوق، علم اجتماع المعرفة من خلال تسعة مؤلفات أساسية، دار الطليعة، ١٩٨٢، بيروت، ص: ١٥- ١٦.

ولم يقتصر الاهتمام بهذه الأمور على الرحالة والمكتشفين، بل تعدّى ذلك إلى المفكرين والفلاسفة. ولم يأت منتصف القرن السابع عشر حتى بدأ هؤلاء بالبحث في موضوع تأثير البيئة على الانسان. فكتب مونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥) عن التأثير الكبير للمناخ والتربة في أخلاق وطباع البشر، وذلك بعد ابن خلدون بحوالي ثلاثة قرون. واعتبر أن المناخ من أكثر العوامل الطبيعية تأثيراً في حياة البشر. وقد حاول أن يثبت ذلك من خلال تأكيده على أن أهالي المناطق الباردة هم أكثر شجاعة وأقوى على مواجهة الصعاب وأكثر صفاء نية وصدقاً من سكان المناطق الحارة. وأكد على ضرورة أخذ العوامل الطبيعية بعين الاعتبار عند البحث في أنماط المعيشة وطرق التفاعل الاجتماعي. ويتجاوز الأمر هذا القدر من الحتمية، عند مونتسكيو، إلى التأثير في الأنظمة السياسية وأشكال الحكم. ففي رأيه أن النظام الجمهوري الديموقراطي هو وليد مجتمعات التربة الفقيرة. والأنظمة الديكتاتورية والاقطاع والارستقراطية تسود في المناطق الغنية. وكذلك الحال، فإن النظام الملكي هو وليد التربة الخصبة والغنية بالمواد الأولية. وسكان الجزر أكثر ميلاً إلى الاستقلال والعزلة من بقية الشعوب، وموقعهم الطبيعي يوفر لهم القدرة على الدفاع عن هذا الاستقلال ضد أي محاولة للغزو أو الاحتلال[١٢].

هذه الأفكار جميعها، وان كانت تفتقر إلى منهج البحث العلمي، وإن كان أصحابها من غير الجغرافيين بالأساس، فإنهم، بكتاباتهم وتقاريرهم، "قد وضعوا بذور الحتمية الجغرافيّة التي ظهرت في كتابات من أتى بعدهم من الجغرافيين"[١٣]. وهذا يعني أن الذين بحثوا في تأثير البيئة على الانسان في إطارها الحتمي كانوا قد وفدوا إلى ميدان الجغرافيا من ميادين أخرى. ذلك أن

١٢- MONTESQUIEU, L'esprit des lois T.1.

١٣- الصقار، دراسات في الجغرافية البشرية، مذكور سابقاً، ص: ٢٨.

الجغرافيين لم يكونوا قد بدأوا الاهتمام بالعلاقة بين البيئة الطبيعية والانسان في ذلك الحين. وكانوا يعتبرون أن ميدان الجغرافيا يختلف تماماً عن هذا الميدان الجديد الذي سُمي فيما بعد بالجغرافيا البشرية. أما المهتمون بالجغرافيا الاقليمية فقد بحثوا في هذا التأثير لأنهم اعتبروا أن من اهتماماتهم البحث في هذا الموضوع وهذا ما سنفصّل القول فيه لاحقاً.

المدرسة الحتمية في إطارها الحديث

لقد كان الجغرافيون الألمان أول من بحثوا في موضوع الجغرافيا البشرية كعلم. وكان رائدهم في ذلك الجغرافي ريتر Ritter (١٧٧٩- ١٨٥٩). وكانت غايته التوصل إلى وضع قوانين عامة تحكم علاقة الانسان بالبيئة التي يعيش فيها. وقد حاول تفسير ما تتعرض له الشعوب وما ينتظرها من مصائر، وما يمكن أن تنتجه من حضارات من خلال طبيعة وشكل البيئة التي يعيشون فيها[١٤]. لذلك فهو يعتبر من أوائل الذين بحثوا في العوامل المؤثرة في الاجتماع البشري من وجهة نظر حتمية، ولكن دون أن ينسى امكانية الفعل الانساني في هذه البيئة. وقدم لنا أمثلة عن هذا الفعل من خلال دراسته لسكان السواحل وأثرهم في تاريخ اوروبا، وسكان جزر البحر المتوسط وسواحله وأثرهم في تطور الحضارة الانسانية لكونهم سكان سواحل استعملوا البحر في أسفارهم وكشوفاتهم الجغرافيّة وتفاعلهم مع الشعوب المجاورة والبعيدة. ولكن بالرغم من تخفيفه لوطأة الحتمية من خلال اظهار النشاط الانساني، فقد عاد ليؤكد حتميته من خلال بعض آرائه. فهو يقول مثلاً أن ضيق العيون لدى المغول ناتج عن تأثير الضوء الشديد المنعكس على الصحراء على العين[١٥].

١٤- صهيون، مدخل إلى علم الجغرافية البشرية، مذكور سابقاً، ص: ١٩.

١٥- الصقار، مذكور سابقاً، ص: ٢٩

أما همبولت الذي سبقت الاشارة إليه، فقد بحث هذا الموضوع بطريقة علمية أيضاً، وهو بالاضافة إلى كونه ألمانياً كزميله ريتر، فقد كان متزامناً معه في مجال الاهتمام بالجغرافيا البشرية ومن وجهة نظر حتمية أيضاً، ولكن دون أن يتورّط في نظريات يطلق عليها صفة العلمية بحثت في تأثير البيئة الطبيعية في الانسان. وهو مع ذلك مقتنع تماماً بالتأثير الشديد لهذه البيئة على الانسان. كما أنه لم ينكر أثر البيئة على الأخلاق. وأكد أن سكان المناطق الجبلية يختلفون عن سكان المناطق السهلية والساحلية، ولكنه أكّد أيضاً أنه لا يمكن وضع نظريات ثابتة حول هذا الموضوع. وقدّم أمثلة كثيرة عن تكيّف الشعوب مع بيئاتها الطبيعية والانطلاق من طبيعة هذه البيئات للفعل في الحضارة الانسانية. فالبحر، مثلاً، كان السبب في نمو تجارة الفينيقيين وفي انفتاحهم على العالم، وكذلك بالنسبة للاغريق والرومان. والبحر كان السبب في ازدهار المواصلات بين الشعوب وانفتاحهم على بعضهم بعضاً.

لا شك أن همبولت يعطي هنا أهمية كبرى لنشاط الانسان ولكن ضمن الظروف الطبيعية المتاحة لهم. فالسماء الصافية والمناخ الحار في أوقات طويلة من السنة ساهما في ازدهار علم الفلك ورصد حركات الكواكب ومواقع النجوم في المناطق التي تتميّز بهذه المواصفات ولم تزدهر في المناطق التي تغطي سماءها الغيوم في أوقات كثيرة من السنة. وهذا يفسر براعة العرب في هذه العلوم وإن أخذوا بعضاً منها من الشعوب المجاورة لهم والمتميّزة مناطقهم بالمواصفات ذاتها. ولكن همبولت يستدرك ويقول أن الظروف الطبيعية سمحت للانسان أن يتصرّف من خلال شروطها. ولكن لم يتصرّف الانسان ضمن هذه الشروط التصرّف ذاته، اذ أن ثمة مناطق كثيرة في العالم تتمتّع بصفاء الجو وشدة الحرارة، ولكن أهلها لم يبرعوا في علم الفلك ورصد الكواكب والنجوم.

ولكن بالرغم من هذه الآراء المعتدلة، فإن تـأثير همبولـت ظـل محـدوداً فـي موجة التفكير الحتمـي حيـث كـانت الجغرافيـا لا تـزال مملـوءة بالنظريـات غـير الناضجة.

لم يضف راتزل Ratzel شيئاً جديداً على ما قدّمه همبولت وان كـان قـد قـدّم نظرية جغرافيّة واضحة من خلال البحث في حيـاة الانسـان وأعمالـه علـى سـطح الارض. وقد ظهر راتزل متأثراً بنظرية داروين التي تقول بخضـوع الانسـان للبيئـة التي يعيش فيها مثله مثـل بقيـة الكائنـات الحيـة. ولكنـه زاد علـى ذلـك بقولـه أن الانسان عليه أن يعيش ويتكيّف مـع الأرض التـي هـي مـن نصيبـه. كمـا عليـه أن يموت فيها بعد أن يخضـع لنواميسـها. ويعتـبر مـن الذيـن يؤكـدون علـى حتميـة خضوع الانسان لمعطيات البيئة الطبيعية التي يعيش فيها[١٦].

ويعتبر ديمولان Demolins من الذيـن سـاهموا إسـهاماً كبـيراً فـي تطـور علـم الجغرافيا البشرية، وإن كانت بصيغتها الحتمية. فقد وضع نظريـة يبيّـن فيهـا تـأثير الموقع الطبيعي على حياة البشر. وقـد ضمّـن ذلـك كتابـه: "كيـف خلـق الطريـق النظام الاجتماعي" "Comment la route crée la type sociale". يـرى ديمـولان مـن خلال هذه النظرية أن عناصر البيئة هي ثلاثة: المكان، العمـل والنـاس. ويقـول أن المكان يؤثّر في نوع العمل، ونوع العمل يؤثّـر فـي النـاس مـن خـلال التـأثير فـي المجتمع وفي التنظيم الاجتماعي والسياسي وفي طرق التفاعل بين النـاس. وذلـك على الشكل التالي:

١٦- صهيون، مدخل إلى علم الجغرافية البشرية، مذكور سابقاً، ص: ٢١.